23 أصول المفاهيم النفسية في التراث الإسلامي

الزبير بشير طه وأحمد محمد الحسن

قسم علم النفس - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (2)، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، 1412هـ/1992م، ج(3): المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية التربوية، ص 249–264 [16 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): التراث الإسلامي – بعض المفاهيم النفسية.

❑ ❑ ❑

هدف الباحثان أساساً إلى بلورة مكونات المنهجية الإسلامية في علم النفس من خلال استبانة ملامحها في التراث الإسلامي.

يأتي الباحثان أولاً على ماهية النفس، ويريان أن العلماء المسلمين قد وصفوها وصفاً دقيقاً وشاملاً ينم عن إدراك عميق لطبيعتها ووظيفتها في الحياة، لتشمل التعريف الوظيفي للنفس Functional definition كوظيفة وجدانية ونفسية في آن واحد.

ثم يعرج الباحثان إلى استخدام العلماء المسلمين للفظ «القلب» بمعنى «النفس» لأول مرة في الطروحات المتعلقة بدراسة النفس البشرية، والتي ركزت بعمومها على مفاهيم «البدن» و«الدماغ» دون القلب. ومن «القلب» اتجه العلماء المسلمون إلى «الفطرة» المركوزة في القلب وهي التي تؤمّن التوازن النفسي للإنسان. وأدت نتيجة دراسة العلماء المسلمين للفطرة إلى دخولهم في أهمية الوقاية النفسية التي اكتسبت في التراث الإسلامي بعداً أرفع من قيمة العلاج النفسي كونها - أي الوقاية - تطويراً للإستعدادات الخيرة المركزة في الفطرة.

* ثم يدخل الباحثان في المنهج التجريبي (كمفهوم نفسي آخر) حيث يريان أن المباحث النفسية في الثقافة اليونانية افتقرت إلى المنهج التجريبي وتأثرت بأكملها بمنهج المنطق الأرسطي والبحث العلمي الذي احتل فيه القياس مكان الصدارة.

ثم يقابل الباحثان ذلك المفهوم عند مباحث العلماء المسلمين في التراث الإسلامي ليجداها غنية بتناولها المنهج التجريبي ابتداءً بالمنهج الإستقرائي القرآني الذي يضم المنهج التجريبي في ثناياه (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدء الخلق)، إلى استخلاص العبر والنتائج، إلى إشارات علاقة النظر والسمع والملاحظة في معرفة أنماط السلوك البشري. ثم يدلل الباحثان بعد ذلك على طرحهما بمنهج الشيخ الرئيس ابن سينا الذي استلهم روح التجريب والإستقراء وتبنى منهجاً استنبط من خلاله العلاج الناجح مع استخدامه لأسلوب التغذية الراجعة.

ومن ابن سينا إلى الغزالي الذي تبنى أسلوباً تجريبياً في علاج النفس، ثم إلى منهجه السلوكي لتعديل الأخلاق والسلوك عن طريق دمج العلم بالعمل.

* وكان «العلم» و«العمل» المفهومين الثالث والرابع للباحثين في ورقتهما، حيث يشير الأول إلى تعديل الخبرة والمعلومات والمعارف المتعلقة بالإستعداد المراد تعديله، ويشير الثاني إلى كونه تدريباً سلوكياً لأجل غرس السلوك المرغوب من خلال زيادة عدد تكراراته. ثم يعطيان نموذج الغزالي في العلاج الذي يقوم على الإزالة المنظمة للإستجابات العصابية والذي يتطلب تدرجاً في المواقف وبلورة منهجية للإستجابات التوافقية (يستشهدان بنص كلامه في إحياء علوم الدين). ثم يزيدان على ذلك، بعد ابن سينا والغزالي، بمقالة الطبيب (إسحق بن عمران) في (المناخوليا) كمنهج يقوم على تحليل الظاهرة ووصفها وعلاجها على أسس تجريبية.

كما تنبه (الرازي) من جهته إلى أثر العامل النفسي في صحة المريض ومثاله في ذلك سوء الهضم وكيف يمكن أن تكون أسبابه نفسية:

«وقد يكون لسوء الهضم أسباب بخلاف رداءة الكبد والطحال منها حال الهواء والإستحمام والهموم النفسية».

ويعزو الباحثان تفوق الرازي في الطب لطبيعة منهجه الذي يقوم على المشاهدة والتجريب.

ثم يخرج الباحثان بخلاصة مفادها أن العلماء المسلمين هم الذين بلوروا المنهج التجريبي الذي انتقل بدوره إلى الغرب.

* ثم طرح الباحثان المفهوم الخامس في ورقتهما الذي تناول شمولية النظرة الإسلامية للمرض النفسي وعلاجه، ويرجعان إلى (ابن سينا) وتصوره القائم على أن الجسد موصول بالنفس والنفس موصولة بمحيطها الغيبي الإيماني الرباني، وإلى (الرزاي) في تسبيبه العضوي - النفسي في مرض المناخوليا (الإكتئاب) ليصل إلى عبارته الشهيرة «مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس». وكيف وصف الرازي علاجاً لحالات الإكتئاب النفسي يتمثل في نوعية الغذاء والأشغال الإضطرارية والأسفار والتنقل ووسائل الترفيه والشطرنج والغناء ونحو ذلك، لكي تشغله عن الأفكار السوداء التي أدت به للحزن والغم.

ثم يتطرق الباحثان إلى مفهوم الغزالي لمنهج الإعتدال والتوسط في الأخلاق كدليل إلى صحة النفس والميل عن الإعتدال كمؤشر للسقم والمرض.

* وفي الأخير يعقد الباحثان مقارنة بين المنهجين النفسيين: الإسلامي والغربي: حيث يركز المنهج الإسلامي على الجانب الوقائي أكثر من العلاجي بينما يصب علم النفس الغربي جل اهتمامه على النواحي الباثولوجية.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

ماهية النفس، الصحة النفسية، المنهج التجريبي، العلم والعمل، المرض النفسي وعلاجه، المنهج الإسلامي لعلاج المرض النفسي (التراث).

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- ركزت الورقة على الطريقة أو المنهجية التي عالج بها علماء التراث الإسلامي (ابن سينا، الغزالي، الرازي) المرض النفسي والعلاج النفسي وكيف تبنّوا المنهج الوقائي أكثر من الجانب العلاجي، وكانت

المقارنات قليلة بين المنهجين الإسلامي والغربي إلا أن ما ذكر في الورقة كان مقارنة تفصيلية للمنهج الإسلامي.

- ما طرحه الباحثان في الورقة خمسة مفاهيم فقط: ماهية النفس، المنهج التجريبي، العلم، العمل، المرض النفسي وعلاجه. ولا أعلم سبب اختيار هذه المفاهيم دون غيرها من ناحية، ولا ما هية الربط بينها من ناحية ثانية.
- صحيح أن من حق الباحث أن ينتقي ما يريد لبحثه فهو المسؤول المباشر عنه، إلا أن القارئ من جهته بحاجة إلى منطق علمي قادر على إقناعه بالطريق الذي يسلكه الباحث أولاً، وبانسجام وتساوق العرض في انسيابية واضحة ثانياً.

❑ ❑ ❑

obeikandl.com